المقاربات النقدية عند السياب
-دراسة في آرائه النقدية-

أ.م.د.جمال جليل إسماعيل
الجامعة المستنصرية-كلية التربية الأساسية

المدخل

السياب.. رؤية في مرجعياته النقدية:

ظل الأدب في العراق يلاحق الأحداث جميعها ويواكبها ويسجلها شعراً ونثراً، ومثل صرخةً عربية بوجه المستعمرين وانطلاقة نحو التجديد والتحديث ولاسيما ان تاريخ العراق والعالم العربي حافل بالأحداث السياسية والأدبية.

وما أن أطلت الأربعينيات من القرن العشرين حتى برزت ملامح النهضة الشعرية الحديثة نتيجة انعكاسات سياسية وأدبية واجتماعية وفكرية معروفة، وعندما يهم الدارسون بدراسة بواعث النهضة الأدبية ودوافعها، لابدّ من ان يشيروا إلى أحد أعمدتها الرئيسة الا وهو بدر شاكر السياب الذي قدّم التجربة الناجحة، وخرج من الإطار التقليدي في بناء القصيدة العربية.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت السياب الا ان أكثر الأدباء والباحثين والنقاد انصرفوا إلى دراسة تراث السياب الشعري وسيرته، ولم نعثر على دراسة متكاملة عن الجانب الآخر من إبداعه ونتاجه وهو تراثه النثري ماعدا إشارات متناثرة لا تفي بالحاجة المطلوبة لذا أثرت في بحثي هذا (السياب... ناقداً) أن أتناول الجانب الآخر من أدبه، نقده وأرائه النقدية التي كان يدلي بها في المناسبات إزاء الشعر وأنواعه وأوزانه وصياغاته، وإزاء المذاهب النقدية القديمة والحديثة.

وفي الوقت الذي كتب عدد من الشعراء العرب المعاصرين عن تجاربهم الشعرية فتحدثوا عن معنى الشعر ونظام القصيدة الداخلي الخاص ومواقفهم من مادة الشعر وتحولات الواقع وطرائقهم في التكوين الشعري، وعن مميزات القصيدة الجديدة وهمومها، إلا ان المرحلة الزمنية التي عاشها السياب لم تمهله ليقدم إلى الدارسين والقراء ومحبي موقفه من هذه القضايا والمسائل المتعلقة بتجربته الشعرية من مختلف الوجوه والظواهر والقيم بمؤلف خاص يتضمن صورة واضحة وموقفاً صريحاً عن آرائه النقدية إزاء قضايا الشعر وهمومه.

إزاء هذا تتضح أهمية البحث ليكون مساهمة مضيئة لكشف ودراسة هذا الجانب الغني من أدب السياب وتاريخه الذي ترك لنا إرثاً غنياً بمعطياته الأدبية على حياتنا الفكرية والمعاصرة وفي دراسة تراثه تسجيل لنضال الأدباء العراقيين لخدمة الأمة والمجتمع، ولاسيما ان السياب كان في طليعة الأدباء الأحرار المكافحين عن آمال الأمة ونضال الشعب على المستويات كافة...

تحليل لمقاربات السياب النقدية:

إذا كان هناك الكثير من الشعراء المعاصرين قد وصفوا تجاربهم فتحدثوا عن الشعر وحدوده وفنونه، وعن مشكلات القصيدة الحديثة، والبنية الداخلية، وعن موقفهم من حركة الشعر ومعاييره، فإن عمر السياب القصير لم يمهله ليقدم لنا صورة نثرية واضحة عن تجربته الشعرية والمسائل المتعلقة بها، وكانت آراؤه النقدية تعكس انطباعات ذاتية أزاء الشعر وظواهره لأنه لم يكن ناقداً او مفكراً، بل كان شاعراً موهوباً يفيض أصالة، ولم يكتب نثراً لمواكبة ظروف معينة ألمت به وفي مناسبات معينة.

حرص السياب في نقده على الدقة والتركيز في عرض آرائه وتجنب الإطالة عند إجابته عن الاسئلة التي كانت تطرح عليه، وهي على قلتها وبساطتها تعكس لنا قيمة كبيرة بأهمية إرثه النثري والنقدي، اذ يوضح لنا تصورات السياب وأحكامه في مجمل قضايا الشعر والأدب المطروحة آنذاك. فمواقفه وآرائه النقدية وان كانت تتسم بالانطباعية، تلقي الضوء على غوامض شخصيته وملامحها ونمط ثقافته ومنابعها، فهي مكمل لشاعريته ولا يمكن الاستغناء عنها، إذ أنها عبرت عن وعي السياب وخبرته وانفعاله بمشكلات عصره.

لقد عني السياب بأدبنا العربي قديمه وحديثه عناية كبيرة وأمضى شطراً من حياته يكتب المقالات السياسية والأدبية التي احتوت مجموعة من قضايا أدبية كثيرة متنوعة، لاسيما المقالات والخدمات التي كتبها لبعض الشعراء الشباب والمقابلات الشخصية التي أجريت معه وتحليله لبعض الآراء التي نشرها في المجلات العراقية والعربية، فمن كل هذه نستطيع أن نلم بالآراء والأحكام النقدية لأديبنا الراحل.

قدم السياب (خلال عمره القصير نسبياً) خلاصة تجاربه وأفكاره الأدبية والسياسية والفكرية لإيمانه بأن الأدب هو الحياة، وان الأديب الحر مطالب بأن يثبت هويته الوطنية والقومية والإنسانية امام الأحداث التي تجابهه، وهو أكثر الناس إحساساً بما يجري، ومن هنا تتضح منزلته الأدبية ورسالته الفنية المتميزة.

وسوف أحاول في هذا المبحث أن أكشف عن أهم آرائه في كثير من القضايا الأدبية والشعرية التي تكشف عن واقع أدبنا العراقي والعربي وحتى العالمي وعن الظروف التي أحاطت به. والذي يسعدنا بأنه سعى في محاوراته إلى التخفيف عن القارئ وتسهيل استيعابه لما يقول مهما اختلفت مستويات القراء، والتعبير بأسلوب واضح المقاصد وبعيد عن التقعر والتكلف، وبلغة حلوة محببة لا غريب فيها.

فالشعر عند السياب رسالة ومضمون وهدف، وعلى الشاعر أن ينصهر في أحداث مجتمعه ويكون معبراً عن روح عصره في مجتمعه لأنه أكثر الناس إحساساً بما يجري، وعليه ان يستوعب روحه وان يقدم للجمهور أفكاراً ناضجة فالابداع الشعري لن يتم إلا عند اندماجه بوهج الأحداث، ومن هنا يؤكد السياب "ان أقل ارتخاء في ذهن القارئ يشوه القصيدة ويفسدها عليه، ولا ريب ان القصيدة الحديثة تحتم على الشاعر ان يكون دقيقاً ازاء العلاقات المعقدة التي تلازم عصرنا، ذلك لأن تكوينها السيكولوجي لايسمح بأي تخلخل او تهاون.."[١].

وهو يرى ان غوص الشاعر في صميم الأحداث والانصهار في المجتمع ينبغي ان لا يجر إليه جراً، بل عليه ان يندفع الى ذلك اندفاعاً ذاتياً لكي يستوعب بحرارة أهم مواقف الإنسان الحر بتلقائية ورغبة، وان يكون صادقاً مع نفسه كل الصدق في التعبير عن آلامه وهواجسه وآماله، ومما قاله وارتآه في هذا الصدد "الشاعر اذا كان صادقاً في التعبير عن الحياة في كل نواحيها فلابد ان يعبر عن آلام المجتمع وآماله دون أن يدفعه أحد الى هذا، كما انه من الناحية الأخرى يعبر عن آلامه هو وأحاسيسه الخاصة التي هي في أعمق أغوارها أحاسيس الاكثرية من أفراد المجتمع"[٢].

فهو يدعو بجرأة عن طريق الشعر الى بناء حياة جديدة، وكان يهدف أول مايهدف الى كشف الواقع والدعوة الى كل ماهو فاضل ونافع، تلك هي رسالة الأديب في المجتمع ولعل كلماته هذه توضح ذلك: "أنا من المؤمنين بأن على الفنان ديناً يجب أن يؤديه لهذا المجتمع البائس الذي يعيش فيه"[٣]، بيد أن هذا الإيمان لايكون مجرداً من فنية الشعر او على حساب شاعريته، فرسالته الإيجابية ينبغي ان تكون عن طريق فن متكامل وضوابط جمالية، فعلى الأديب الشاعر استيعاب المقومات الفنية الشعرية للقصيدة وتفهمها لتخرج

---

[١] مجلة فنون، العدد ٢٢، الاربعاء ٤ كانون الاول، ١٩٥٧، ص٧.
[٢] محمد صالح عبد الرضا، آراء السياب في الشعر، جريدة الثورة ١٩٨٥/١٢/٢٧.
[٣] مقدمة ديوان أساطير، ص٨.

متكاملة فنياً، لأن "الشعر (فن) قبل أن يكون (للفن) او (للمجتمع)"[١]، هذا الكلام يعكس لنا بعد نظر السياب وبصيرته الثاقبة فهو يدلي برأيه من موقف المتأمل المتفحص العارف بأسرار مهنته كشاعر متمرس.

اذا كان الذوق الفني القديم للشعر يدور في إطار ثابت ينحصر بين الشعر المبدع والمصنوع والمطبوع، نلحظ ان السياب اعتمد على مقياس ذوقي، ومقياسه هنا أنه قسم الشعر الى أقسام ثلاثة "شعر تقرأه فتعجب لأول وهلة به ثم يزداد إعجابك على مر الزمن وهذا أرفع أنواع الشعر وهو نادر الوجود وشعر لايعجبك للمرة الأولى ولكنك تعجب به كلما قرأته وهو الشعر المتوسط (وشعر نازك من هذا النوع) وشعر يبهرك قرأته لأول مرة ثم يفقد بريقه وقيمته بمرور الزمن، وهذا هو الشعر المزوق البراق الفارغ"[٢].

فالشعر الجيد هو الذي يفرض وجوده وتبقى قيمته ومضمونه على مر الزمن لايضعف ولاينتكس بل إن سطوته تزداد بتقادم الزمن لما فيه من فن جميل ومضمون هادف يقود الى شكل وإطار مناسب يوائم الحالة الجديدة لفن الشعر الجديد، يمنح القصيدة الطاقة الشعرية اللازمة، ثم انه موهبة أولاً ولايمكن أن نصنع شاعراً، هذا مايؤكده السياب عندما انتقد الدكتور عبد الرزاق محي الدين في رأيه القائل بإمكانية تخريج شعراء من معهد ينشأ لتدريب وتخريج الشعراء، فهذا الكلام يحتاج الى محاججة وتفنيد بغية إبطاله، ويرى بأن "الشعر شأن كل الفنون الأخرى موهبة، ولكنه أكثر من أغلب الفنون الأخرى موهبة، لاينميها غير الدرس والاطلاع وتجربة الحياة ثم الاخلاص لهذا الفن"[٣].

إذن فالشعر في أساسه هو موهبة لابد ان يمتلكها من يبغي أن يصبح شاعراً، وهي تنضج بالدراسة والاطلاع لكي تتبلور بنضج وتبرز للوجود بوضوح، فالشعر المبدع يتدفق بحرية وبفن ويتغذى بإحساس الشاعر وقلبه وموهبته ليواجه الحياة مفسراً ومكتشفاً مافيها من تجارب، فعلى الشاعر أن يكون مبدعاً عارفاً بأسرار صنعته متوجهاً الى الجمهور بفنه وموهبته ورسالته، هذا الشاعر ذو الرسالة ينبغي ليصل الى غايته ان يتحلى بصفات جوهرية من القوة والتأثير والأصالة ليكون أهلاً للتحدث عنه، يقول السياب في هذا الصدد عن الشاعر "ينبغي أن يكون قبل كل شيء، شاعراً تتقد في قلبه تلك النار الالهية الموهبة، والاسلوب ركن مهم من أركان الشعر، والاسلوب شيء يكتسب اكتساباً من إلمام

---

[١] مقدمة ديوان "في طريق الحياة"، لألفريد سمعان، ص٤.
[٢] جريدة الشعب (الملحق الاسبوعي)، بغداد، العدد (٣٨٦٢) في ١٩٥٧/٦/٢٢.
[٣] جريدة صوت الجماهير، مقابلة أجرتها مع الشاعر بتاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٦.

الشاعر بتراث أمته الأدبي ومن طول التمرس والمران، وهناك شيء آخر يبدو للوهلة الأولى وكأنه جزء من الاسلوب ولكنه في الحق مستقل بذاته، لابد للشاعر من ذخيرة ضخمة من الالفاظ وهذا ما لم يحققه معظم الشعراء المجددين، فالموهبة وحدها لم تعد تكفي لخلق شعراء..... والتواضع صفة لايمكن للشاعر ولا لكل فنان آخر ان يتطور دونها، فمتى ماركب الغرور أحدنا وخيل إليه أنه بلغ القمة فقد قضي عليه، فليس للابداع حدود ويمشي مع التواضع يداً بيد، وان تكون الشهرة آخر مايطمح الشاعر إليه، فالشاعر الحق يطمح الى الابداع والتفوق على نفسه، وعلى الشعراء الآخرين فيما ينتج لا فيما يقال عنه، حتى وان لم يعترف أحد بتفوقه هذا، عليه أن يكون صبوراً قبل ان يكتب، وحين يكتب وبعد ان يكتب فإن تسعة أعشار العبقرية عرق ودموع"[١].

وينبغي للشاعر كما يرى أن يكون له أسلوبه الخاص به ليتفرد عن الآخرين من الشعراء بصوته الخاص ولمساته الشاعرية التي تعكس رؤاه في طور التجربة والنضج وبعد أن تصقله السنون والخبرة والنضج فعندها يصبح مطالباً بهذا التفرد يلمع اسمه في خارطة الشعر العربي المعاصر، والسياب ينظر الى نفسه بعد أن عاش فترة التطور الأولى ويقول "إني أحاول أن أطور لنفسي أسلوباً خاصاً، وإني مخلص في محاولتي هذه"[٢].

فالشعر له محبوه في الساحة الأدبية وأنصاره وأمسياته كثيرة، وسلطانه كبير لمقدرته الفائقة على التغلغل في نفوس وعقول أكبر مجموعة من محبي الأدب، وان اختلفت ثقافتهم وميولهم، ولايشترط كل ذلك في الفنون الادبية الأخرى، كالقصة والرواية وغيرها، وهذا أدى الى أن يحظى السياب الشاعر بمكانة متميزة بين أدباء العرب. يقول السياب "مازال الشاعر يحظى بالمكانة الأولى بين أدباء العرب.. ومازال كل أديب عربي سواء أكان كاتب قصة أم مقالة أم كان ناقداً يطمح ان يصبح شاعراً او يتمنى ذلك في قرارة قلبه على الأقل، وعلى هذا الأساس فإن المقاييس السائدة في الشعر فرضت نفسها على فنون الأدب الأخرى"[٣].

وللسياب أحاديث متفرقة عن واقع أدبنا في العراق والعالم العربي، فكان يقتنص كل فرصة ليدلي بأحاديثه عن حاضر الشعر ومستقبله، وعملت هذه الأحاديث والأمسيات على إذكاء حركة الشعر، خاصة، والأدب عامة، وكشفت عن تذوقه الشعر. لقد حاول

---

[١] خضر الولي، جريدة صوت الجماهير، ١٩٦٣/١٠/٢٦، (مقابلة أجراها مع السياب).
[٢] خضر الولي، (م.س)، ص١٤-١٥.
[٣] الالتزام واللاالتزام في الأدب العربي الحديث، (م.س)، ص٥٥١-٥٥٢.

بإخلاصه أن يرقى الى مهمة الناقد الموضوعي حسب طاقته وعكست أحاديثه موقفه الخاص ازاء بعض المشكلات التي مابرحت تقلقه. فعندما دعته مجلة شعر عام ١٩٥٧ (تموز) لإحياء أمسية شعرية في بيروت، أحيا أمسية شعرية بالمختارات الشعرية التي ألقاها، وكانت أهم محاور الأمسية كيفية تمثله للشاعر الحديث، ومهمته الجديدة ومظاهره، ونشعر ونحن نتابع مادار من كلام اننا أمام متحدث يوجز خلاصة أفكاره وتجاربه ويقدمها للقارئ والمستمع بصورة بعيدة عن التعقيد والتكليف والمهاترة، فقد ربط بين مهمة الشعر والدين وبين نشأتيهما، فالشاعر والقديس كلاهما يبصر العالم برؤية ثاقبة وقد تجلت أمامها صورة العالم وهي تهتز بكثرة الخطايا، ولعل كلامه يوضح ذلك "لو أردت أن أتمثل الشاعر الحديث، لما وجدت أقرب الى صورته من الصورة التي انطبعت في ذهني للقديس يوحنا، وقد افترست عينيه رؤياه، وهو يبصر الخطايا السبع تطبق على العالم كأنها اخطبوط هائل. والحق ان أغلب الشعراء العظام كانوا طوال القرون، أنماطاً من القديس يوحنا..."[١].

هكذا قدم لنا عصارة أفكاره حول مهمة الشعر لإيمانه الذي لا حدود له بأن الادب ومنه الشعر للحياة، والحياة جديرة بالاحترام لقدسية رسالتها التي يحمل لواءها الشاعر، وهل هناك أعظم من إجياد تفسير معقول لتوضيح لعالم وتفسيره والعمل من اجل تغييره لخدمة الإنسان، فالشعر له غايته النبيلة، وكذا الدين، من هنا يوضح السياب هذه الأفكار بقوله "اذا تذكرنا.. ان الدين كان ومايزال وسيلة يستعين بها الانسان لتفسير ظواهر الطبيعة وقواها الغامضة ولاسترضاء هذه القوى المجهولة من جهة ثم لتنظيم العلاقات بين البشر من جهة أخرى، أدركنا ان تفسير الحياة وتنظيمها، او تحسينها بالأحرى، ظلا طوال أجيال عديدة، من اهم أغراض الشعر وأهدافه...."[٢].

والشاعر المبدع هو الذي يرتبط بمجتمعه ويستقي منه لكشف الواقع والإيماء الى الفضائل، وان يكون دقيقاً أمام العلاقات الصعبة المعقدة والقصيدة الرائعة التي تهز القارئ بل تزعجه وتثير في نفسه القلق والتساؤل لا البهجة المؤقتة التي سرعان ماتزول بزوال الأثر، اما القصيدة الرائعة فهي التي تترك بصمات وتأثيرات يكبر وشمها مع الزمن، وله رأي بخصوص ذلك حين يقول "إن قراءة قصيدة عظيمة نوع من أنواع المخاض، من أنواع

---

[١] مجلة شعر، العدد ٣، تموز ١٩٥٧، ص١١١.
[٢] المصدر نفسه، ص١١١-١١٢.

الميلاد. ولن نولد الأمن خلال الألم، انه ميلاد الروح، اننا نعيش في عالم قائم، كأنه الكابوس المرعب، واذا كان الشعر انعكاساً من الحياة، فلابد من ان يكون قائماً مرعباً...."[١].

وللسياب رأي طريف بخصوص صمود الشعر بوجه التاريخ والزمن عندما سئل حول توقعاته لصمود شعر نزار أجاب قائلاً "لاأعتقد ذلك، ان شعر نزار أشبه بالشكولاته تحسه مادام في فمك، الا ان طعمه يزول عندما تنتهي من مضغه، وانا شخصياً لاأشجع انتشار هذا النوع من الشعر وان كان شعر نزار لوناً يحتاج الشعر العربي إليه، ان نزار وحده كان فحاجة المرء الى الشكولاته ليست كحاجته الى الماء والخبز، وشعر نزار شكولاته"[٢].

وإذا كان قد أبدى رأيه في الشعر وأنواعه وقسمه الى أنواع ثلاث الشعر النادر الوجود الذي يبهر القارئ ويزداد اعجابه به، والثاني المتوسط والثالث الشعر المزوق البراق الفارغ، الا انه وقف موقفاً معارضاً امام الشعر الذاتي ووجد فيه خطراً، يقول "إنني أكره الشعر الذاتي، واعتبر الشعراء الذاتيين عملاء للاستعمار حتى وان لم يشعروا هم بذلك، وأهم خطر يجب علينا ان نحاربه على الأخص أولئك الذين يشعرون الأفكار الانحلالية ويحاولون أن يخدعوا الجماهير بأن لا فائدة من نضالهم لأن الحياة شيء تافه لايستحق كل هذا الاهتمام"[٣].

فالشعر الجيد كما يرى هو الذي يتعمق في فهم حياة الجماهير ويثير فيهم الحماس برسالته الفكرية القومية التي لاتميل مع التيار أياً كان اتجاهه "ان نتاجي مكشوف أمام الناس جميعاً يستطيع ان يرى ما فيه من روح قومية إنسانية مخلصة لا تحابي شرقاً ولا تتملق غرباً، وبعد فالمسألة مسألة ضمير"[٤]. هذا مايدلي به السياب في رده على جريدة الثقافة الوطنية السورية.

أمّا المسألة الأخرى التي شغلت السياب والأدباء والنقاد آنذاك ولازالت تشغل بال الكثيرين لأهميتها، فهي المتعلقة بالشعر الحر، وانبثاقه وصاحب الريادة الاولى، فقد قيل الكثير حول ذلك وتذكر الوقائع بأن الشاعرة نازك الملائكة قد أثارتها في مقالها (حركة

---

[١] مجلة شعر، (م.س)، ص١١١-١١٢.
[٢] مجلة فنون، (م.س)، ص٨.
[٣] محمود العبطة، (م.س)، ص٨٣.
[٤] جريدة الأخبار، العدد (٤٢٦١)، ٢٧ كانون الثاني ١٩٥٦.

الشعر في العراق) التي نشرتها في مجلة الأديب– يناير ١٩٥٤– حيث ذهبت فيه إلى أن أول قصيدة من الشعر الحر هي قصيدتها (الكوليرا) ثم أضحى هذا الادعاء مدار جدل وخلاف في مجلتي الاديب والآداب، شارك فيه نفر من المعنيين في شؤون الأدب والشعر.

وللسياب نفسه أحاديث أخرى حول من له الاسبقية في نظم الشعر الحر أهو بدر أم نازك أم غيرهما؟ فقد كان السياب يراقب النقاش، لأنه يشعر بأن مسك الختام سيكون له، ولاأريد أن أخوض في هذه المعمعة لأنها معركة ولكن الذي يهمني هو موقف السياب وأحكامه. كان السياب يرى ان الأستاذ (علي أحمد باكثير) هو أول من كتب على طريقة (الشعر الحر) في ترجمته لمسرحية شكسبير (روميو وجوليت) الصادرة في كانون الثاني عام ١٩٤٧. وجاء ذلك في رده على مقال نازك الملائكة فند فيه أقوالها، وحرص على ان يكون رده هادئاً غير منفعل وكشف الحقائق بتروٍ مستنداً إلى الوقائع لا إلى التخمين، مؤكداً حقيقة ريادته لهذا اللون الشعري الجديد بصيغته الناضجة، وبأنه أول من اقتدى به من قبل الشعراء العراقيين فساروا على دربه وطريقته وان بالإمكان إتيان ذلك بكثير من الشواهد، والمهم ليس من هو الرائد في هذا اللون، بل الإجادة فيه: قال السياب "إذا تحرينا الواقع مرة أخرى، وجدنا ان ديواني الأول (أزهار ذابلة) الذي طبع في مصر، وصل إلى العراق في شهر كانون الثاني عام ١٩٤٧ مع العلم ان قصيدة (هل كان حباً) المكتوبة على طريقة الشعر الحر قد كتبت قبل طبعه بما لايقل عن شهرين، إذ كانت المسألة مسألة حساب فقط، وبأكثر من عام كما هي الحقيقة. ثم إن نازك تقول ان الصحف لم تنشر شيئاً من الشعر الحر في الفترة الواقعة بين ظهور ديوان (أزهار ذابلة)، وقصيدتها (الكوليرا) التي هي ليست من الشعر الحر، كما سنثبت في مناسبة أخرى وبصورة مفصلة، وبين صدور ديوانها (شظايا ورماد)، ولكن الواقع خلاف ذلك. فقد نشرت أنا في تلك الفترة ما لايقل عن خمس قصائد من الشعر الحر في الصحف البغدادية والنجفية..... وهناك حقيقة لم يبق من مجال لكتمانها هي ان الشعراء العراقيين الذين كتبوا الشعر الحر لم يتأثروا بخطى نازك ولا خطى باكثير، وأنما تأثروا بخطى كاتب هذه السطور من حيث الشكل، وفي الوسع إثبات ذلك. ومهما يكن، فإن كوني أنا أو نازك أو باكثير أول من كتب الشعر أو آخر من كتبه ليس بالأمر المهم. وإنما الأمر المهم هو ان يكتب الشاعر

فيجيد فيما كتبه، ولن يشفع له –ان لم يجود– انه كان أول من كتب على هذا الوزن أو تلك القافية"[١].

ويقف الأستاذ كاظم جواد ويضم صوته إلى صوت السياب قائلاً "إن المحاولة الجدية في الشعر الحر الاولى من نوعها هي لبدر شاكر السياب، وذلك باكتشافه قدرة بحر الكامل الهائلة على ملاءمة التحرر بقصيدته (السوق القديم) المنشورة في جريدة (النفير البغدادية في تشرين الثاني عام ١٩٤٨)[٢].

ويقول روفائيل بطي في مقدمته التي كتبها لديوانه الاول (أزهار ذابلة) قال "انه – أي السياب– شق للشعر العربي طريقاً جديدة ماكان لها الا ان تكون"[٣]، فقد أحدث ثورة في استخدام التفعيلات في البحور الشعرية وفتح آفاقاً رحبة في استخدام قيم جديدة في الرموز وغيرها.

فالشعر المبدع عند السياب لايعني الابداع وخلق عالم جميل من اللفظ والجرس والصورة فحسب، بل المهم ان يكون الشعر وسيلة يصل من خلالها إلى تصير الواقع الجميل وهكذا أضحت ثورة التجديد الشعري مثار اهتمام السياب وزملائه ومعاصريه من الشعراء والنقاد، كانت للسياب اذن أحكامه وتأملاته في شؤون هذا الشعر الجديد، وليس هناك من ينكر بأن أقواله وأحاديثه قليلة الا انها تفضي إلى تحديد آرائه ومساهمته في الحياة الفكرية والأدبية، إذ عمل مع العاملين في تدعيم أسس إغنائها وإثرائها على الرغم من متاعبه ومرضه الذي لم يهمله كثيراً.

لقد وقف السياب مؤكداً هذه التجربة المتميزة الرائدة مدعياً شرف ريادتها، ودعا إلى ضرورة دعمها وتجاوز المفهوم التقليدي للشعر ولكن ليس على حساب قطع الصلة بتراثها الثمين، لأنه امتداد له وتطور يوائم روح العصر ومزاج ونفسية الانسان العربي الجديد الذي يواجه تحديات وهموم وتطلعات كثيرة.

وقد احتدم الجدل كثيراً بين أنصار القديم وأنصار الحديث –أصحاب القديم يرون ضرورة استمراره أو تطويره بتحفظ، وأنصار الجديد يطالبون بتغييره وتطوره تجاوباً مع نمط الحياة الجديد وتغير الإنسان العربي ومفاهيمه، واحتدم النقاش حول القافية، الوزن الخليلي، والموسيقى، والشكل والمضمون وغيرها من اللوازم الضرورية للقصيدة، فأين يقف السياب

---

[١] مجلة الآداب، (مناقشات)، العدد ٦، السنة الثانية، حزيران ١٩٥٦، ص٦٩.
[٢] طراد الكبيسي، (السياب في النقد)، مجلة الكلمة، العدد ٢، السنة الثالثة، ١٩٧٠، ص٥٧.
[٣] نفسه، ص٤٩.

من هذا وذاك؟ لو تفحصنا جيداً آراؤه لوصلنا إلى خلاصة مؤداها أنه دعا إلى ضرورة الأخذ بهذا اللون الشعري الجديد المستقي من التراث والذي جاء مطوراً له استجابة للذوق العربي ولروح العصر، ولكن ليس بصورة التمرد والخروج على كل ماهو مألوف لم ينس السياب عربيته والرباد المقدس الذي يشده إلى ماضي الأمة الأدبي الرائع، وان جدة الرؤية والوعي الشعري الجديد والاستجابة لروح العصر ليستا نكوصاً وانحرافاً بل هي تواصل وتطور، فلابد من هذه الثورة الجديدة في التجديد الشعري وهذه بعض أقواله التي علل فيها ميلاد حركة الشعر الحر وانتشارها، قال "ان استفحال خطر الشعر المنبري كان من جملة العوامل التي أدت إلى ميلاد حركة الشعر الحر واشتدادها"[١].

وكان لدراسة السياب الادب العربي والأجنبي أثرها الفعال في أكثر أحكامه وآرائه النقدية، فقد تأثر بالشاعر (ت.س.اليوت) والشاعرة ايديث سيتويل (وخصوصاً بمسألة التضحية) وبلوركا وكيتس وأبي تمام والمتنبي، وسوف أتطرق اليها فيما بعد.

ويعترف السياب أن ترجمات علي محمود طه للشعراء الفرنسيين أمثال (اشيلي وبودلير وفرلتي) فتحت له آفاقاً شعرية جديدة، وانها هي التي قادته إلى تعلم اللغة الانكليزية لقراءة الأدب العالمي[٢].

وقد ورد للسياب عدة إشارات في رسائله التي أرسلها إلى عدد من أصدقائه عن الشعر المهموس وعن كتاب مصطفى عبد اللطيف السحرتي، والى إحدى مقالات ت.س. اليوت وهي "التراث والموهبة الفردية" من كتاب "الغابة المقدسة" ووردت إشارتان إلى كتابين أحدهما بالإنكليزية وعنوانه "الماركسية والفن" والثاني بالعربية وهو لرئيف نوري عنوانه "القطر العربي الحديث" وبوجه عام تضمن هذا التقرير انطباعات صارمة، تناولت الالتزام في الأدب العربي منذ الجاهلية حتى العصر الحديث.

والشعر الجديد الذي دعا اليه السياب له مايبرره "انه بناء فني جديد، واتجاه واقعي جديد، جاء ليسحق (الميوعة الرومانتيكية) وأدب الأبراج العاجية وجمود الكلاسيكية كما جاء ليسحق الشعر الخطابي الذي اعتاد الشعراء السياسيون والاجتماعيون الكتابة به..."[٣].

---

[١] محاضرته "الالتزام واللاالتزام في الادب العربي الحديث"، ص٢٤٨.

[٢] ينظر: محمود العبطة المحامي، بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٥. وأيضاً: إحسان عباس، بدر شاكر السياب، حياته وشعره، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.

[٣] مجلة الاداب، (مناقشات)، (م.س)، ص١٩.

وهذا الشعر الجديد يحتاج إلى الشاعر الحق الموهوب المتمكن من أداته الشعرية والمواكب لكل استجابات الحياة الجديدة. الشاعر الحق "هو من يقول خير ماعنده لا كل ماعنده وكل مايمكن أن يقال.. ان الشاعر الحق هو الذي يشعرك بأن لديه أشياء أخرى لم يقلها..."[١].

لقد قاد السياب ثورة على القوافي مع أن جذورها تضرب في القديم تمتد إلى عصر الاندلسيين لأسباب كانت موسيقية في أكثرها. "فالثورة الحديثة على القافية تتماشى مع الثورة على نظام (البيت). لقد أصبح الشاعر الحديث يطمح إلى جعل القصيدة وحدة متماسكة الأجزاء بحيث لو أخرت وقدمت في ترتيب أبياتها لاختلت القصيدة كلها، أو لفقدت جزء كبير من تأثيرها على الاقل، فهل يسمح الشاعر الحديث للقافية الموحدة بأن تكون حجر عثرة في سبيله هذا؟ كما ان الشاعر الحديث مطالب بخلق تعابير جديدة عليه ان (ينحت) لا ان يرص الآجر القديم.."[٢].

فتنوع القافية عند السياب يتيح له الانطلاق والتحليق في عالم الخيال الرحب، تيمناً بالرومانسيين الذين تأثر بهم في بداية حياته الادبية، فهو يرى ان الشعر "يحتاج إلى خيال"[٣] وان نتاج الشاعر الحق "يحمل من زخم العواطف وفورتها ومن جنون الخيال، من قال ان الشعر مجرد لغة محكمة ومختصرة على الاوزان والمفردات"[٤] والسياب يحرص على ضرورة توافر عنصر الخيال والعاطفة لدى الشاعر، فتلك أداة مهمة من أدوات التعبير عن تجربة الشاعر العربي المعاصر، فالعاطفة الجياشة تخرج الشاعر من القمقم المحصور بداخله إلى العالم الرحب الفني بعوالمه الجميلة.

من هنا حث السياب شعراءنا الشباب على ضرورة التحرر من طوق القافية، ولعل كلامه في مقدمته التي كتبها لديوان الفريد سمعان (في طريق الحياة) ما يؤكد ذلك حيث يقول "لعل لاصراره على (القافية الموحدة) في معظم قصائده أكبر الأثر في تقييد خياله، واضطراره إلى قول ما لم يرد ان يقول أو إلى قوله بغير الصورة التي أراد ان يعبر

---

[١] خضر الولي، (م.س)، ص١٣.
[٢] خالص عزمي، (م.س)، ص٢٦. وينظر: جريدة الثورة، ١٩٨٥/١٢/٢٧.
[٣] مقدمة ديوان (مرفأ السندباد)، ص أ.
[٤] مقدمة ديوان (مرفأ السندباد)، ص أ.

بها..... وبعد فإني أحثه وأحث شعراءنا الآخرين على التحرر من هذا الطوق مااستطاعوا إلى ذلك سبيلاً.."[١].

أمّا التفعيلات فلم يجر فيها أي تغيير خطير فالشاعر الحديث حريص على اختيار الاوزان والبحور حسب نوع القصيدة وغرضها ومناسبتها، فالثورة على الأوزان "ماهي بثورة فنحن مازلنا نكتب الشعر بأوزان الخليل، وليس لنا الا ان نكتب بها... فنقول في الثورة على الأوزان ماقلنا في الثورة على القافية من حيث الاصول التاريخية والاسباب الموسيقية والشكلية...."[٢]. "وان الشعراء الشباب في العراق لم (يثوروا) على القواعد الكلاسيكية بالمعنى الدارج للثورة، ولكنهم طوروا بعض العناصر التي اعتقدوا انها حسنة من عناصر التراث الشعري العربي..."[٣].

وكان السياب يميل إلى وحدة الوزن في القصيدة لكي تتماشى القصيدة في جو واحد وبإيقاع منظم ويرى "الانتقال من وزن إلى وزن سواه، كان كثيراً مايسبب (نشازاً) في الموسيقى لاتقبله الاذن الحساسة"[٤]. وفي رأيه "ان موسيقى القافية شيء ثانوي بالنسبة للموسيقى العامة"[٥]. أمّا عن استخدام المؤثرات الأجنبية والرموز والاسطورة فقد أثارت اهتمام السياب، فأشار إلى ضرورة الاستفادة من الموروث الاجنبي لتعزيز الجانب الإنساني في القصيدة العربية المعاصرة، وهذا لايتم على حساب الاتفصام من رحم الامة كما بينت سابقاً، بل دعا إلى الاستفادة منها بصورة تحفظ مقومات شخصيتنا العربية، فارتباط الاديب بعصره حقيقة قائمة، والتعبير عن آلام الامة وآمالها يعني في الوقت نفسه التعبير عن أعمق أحاسيسه، لذا ينبغي أن نكون واعين لدورنا، تراثنا المضيء نستقي منه مايغني نتاجنا ومانأخذه من الغرب وهذا مافعله السياب ونجح فيه.

وحين كتب السياب قصيدة (هل كان حباً) في ديوانه أزهار ذابلة[٦]، عدّها السياب محاولة جديدة في "الشعر المختلف الأوزان والقوافي" غير ان هذه التسمية لم تكن من عنديات السياب، بل كانت تسمية شائعة عرفت بها محاولات "جماعة ابوللو" التي أطلقوا عليها مصطلح "مجمع البحور"، فضلاً عن ذلك لم تكن هذه التسمية تصلح لأن تجري

---

[١] مقدمة الديوان، ص٤.
[٢] خضر الولي، (م.س)، ص١١-١٢.
[٣] (م.س)، ص٦٠.
[٤] مقدمة أساطير، ص٦.
[٥] الاداب، العدد ٦، (م.س)، ص٢٤.
[٦] ديوان أزهار ذابلة، بدر شاكر السياب، مطبعة الكرنك، الفجالة، القاهرة، ١٩٤٧.

مجرى الاصطلاح، فهي ليست تفصيلية فحسب، بل خاطئة أيضاً، فالشعر الحر ليس مختلف الأوزان والقوافي، كما هو معروف، بل مختلف القوافي فقط، ولكن السياب طوّح بها من غير اكتراث. ويعترف السياب... إن أكثر من شاعر عربي في كل بلد عربي قد ثار على الموسيقى الريفية التي تأثر الشعر العربي بها، وقد تناولت هذه "الثورة" في أول عهدها وحدة القافية، ثم تعدتها إلى الأوزان، ونسب السياب سلوكه الشعري هذا بتأثره بالشعر الغربي "الإنكليزي بخاصة".

وفي أيلول ١٩٥٠ صدر للسياب ديوان جديد هو ديوان "أساطير" وقد قدّم لهذا الديوان السياب نفسه بمقدمة شملت أربع صفحات منه، وتعد هذه المقدمة أول وثيقة عبّر فيها السياب عن وعيه التجديدي، وبغية تحليل هذه الوثيقة والتعرف على مستوى مافيها من مواقف نقدية وما فيها من وعي نقدي تجديدي فأول مايلفت النظر أنها جاءت باردة، لا حماسة فيها للتجديد، ولا أساس لخطورته، ولو تأملنا في مقدمته، لوجدنا أنها قصرت في توضيح ثلاث مسائل أساسية تحدد الوعي التجديدي في قضايا عدّة في الشعر ونقده وقضاياه المتشعبة التي تهم الشعراء المجددين آنذاك، تتمحور حول مايقوله السياب عن دوافع عملية التجديد الشعري، وماينشر به من قيم التجديد، ولو حاولنا تقصي هذه المحاور لتحسسنا موقف السياب وإحساسه برتابة موسيقى الشعر العربي التقليدي، والإشارة السريعة إلى بعض مَن ثار عليها، ومن ثم فإنها لاتتحدث عن التجديد كضرورة تاريخية، ولم تحسن الحديث عنه كضرورة تاريخية، بل تحدث عنه ضمناً وكأنه "ظاهرة موسيقية" وليس أكثر، وهذهِ من دون شك نظرة تجزئية قاصرة، تضيق حدود حركة التجديد، وتحيلها إلى ظاهرة من ظواهر الشكل، وتتكر ضمناً أيضاً العلاقة بين الشكل والمضمون، وتعزل الحركة نفسها عن شرطها الموضوعي.. صحيح أن هذهِ المقدمة لم تتوفر على وعي شامل ودقيق بالظروف الموضوعية التي جعلت من التجديد ضرورة لابدّ منها ولكنها انطوت على إحساس صادق بهذه الضرورة، وقناعة واضحة بحتمية التجديد ورؤية عميقة لمستقبله، فكان أن لعبت دوراً ملموساً في شحذ يقظة الشعراء.

وقد برر السياب في مقدمة ديوان أساطير أيضاً غموض بعض قصائده بأن كان "مدفوعاً" إلا أن يعشي بعض قصائده "بضباب خفيف" لأنه كان "متكتماً" لايريد أن يعرف الناس كل شيء عن حبه.

وأشار إلى ظاهرة أخرى في قصائده هي "تنادي المعاني وتداعيها" و"مزج الوعي باللاوعي"، وتكوين الأمل بالذكرى، وقد مثل لهذه الظاهرة بخمس قصائد من ديوان أساطير هي "في القرية الظلماء، السوق القديمة ونهاية اللقاء، واتبعيني، وهذه من دون شك تُعد قيمة جديدة تُسجل له إذ لم يسبقه أحد بالإشارة إليها.

وأشار أيضاً إلى ظاهرة أخرى وعدّها أهم الظواهر في ديوانه هي "ان البيت ليس وحدة القصيدة" وأن "المعنى يتسلسل من بيت إلى آخر سالكاً عدداً من الأبيات".

ولابدّ من الذكر "أن السياب لم يشر في مقدمته أعلاه إشارة واضحة إلى الظروف الموضوعية التي قادت إلى التجديد، كما ينتظر منه بوصفه شاعراً ذي انتماء سياسي وفكري معين، ولست أعزو إلى ذلك الاّ إلى عدم قدرة الشاعر على تحليل ظاهرة التجديد في الشعر ووضعها في مكانها من خارطة المتغيرات الاجتماعية، لذا عمد إلى تقديم سياق تاريخي موجز، ومبتسر لثورة الشعراء على تلك الموسيقى الرتيبة التي تأثر الشعر العربي بها، كما يقول السياب...

هذه هي أهم القيم الفنية التي تناولها السياب.. وقال عنها إنما هي ظواهر تتجاوب مع نفسي.

لقد دعا السياب إلى تجنب النقل الحرفي لأن ذلك يفقدنا هويتنا، يقول "يجب أن يبقى خيط يربط بين القديم والجديد. يجب أن تبقى بعض ملامح القديم في الشيء الذي نسميه جديداً وعلى شعرنا الا يكون مسخاً غربياً في ثياب عربية أو شبه عربية. يجب أن نستفيد من أحسن مافي تراثنا الشعري، في نفس الوقت الذي نستفيد فيه مما حققه الغربيون، ومنهم الناطقون باللغة الانكليزية في عالم الشعر"[١].

وهو يعد استخدام الرموز والاساطير واسطة لاستكشاف العلاقة بين الفكرة والتعامل الرمزي الشعري لها، وانها ثمرة قراءة الموروث الأجنبي والعراقي، فالشعر البابلي كما يرى يحتوي على كنوز قريبة من احساسنا لهذا دعا إلى استخدام الرموز البابلية...قال "أمّا الرموز البابلية فاستعمالي لها لم يكن الا لما فيها من غنى ومدلول. وهي بعد قريبة منا!"[٢] ولهذه الدعوة دافع سياسي أيضاً لأن السياب اراد أن يضلل زبانية النظام الملكي البائد، يقول "لعلي أول شاعر عربي معاصر بدأ باستعمال الاساطير ليتخذ منها رموزاً كان الدافع

[١] رسالة الى يوسف الخال، بتاريخ ٤ مايس ١٩٥٨.
[٢] رسالة الى سهيل ادريس بتاريخ ١٩٥٨/٥/٧.

السياسي اول مادفعني لذلك. فحين أردت مقاومة الحكم الملكي السعيدي بالشعر اتخذت من الأساطير التي ماكان زبانية نوري السعيد ليفهموها ستاراً لأغراضي تلك"[١]. والسياب استخدم الاسطورة للتعبير عن العصر بصورة غير مباشرة فرضتها ظروف العصر وتعقيداته، وأضحى مظهراً من مظاهر الشعر الحديث، يقول السياب "لم تكن الحاجة إلى الرمز، إلى الاسطورة أمس مما هي اليوم، فنحن نعيش في عالم لا شعر فيه، أعني ان القيم التي تسوده قيم لا شعرية، والكلمة العليا فيه للمادة لا للروح، وراحت الأشياء التي كان في وسع الشاعر ان يقولها، ان يحولها إلى جزء من نفسه تتحطم واحداً فواحداً، أو تنسحب إلى هامش الحياة. فإذن التعبير المباشر عن اللاشعر لن يكون شعراً فماذا يفعل الشاعر إذن عاد إلى الأساطير إلى الخرافات التي ماتزال تحتفظ بحرارتها لأنها ليست جزءاً من هذا العالم، عاد إليها ليستعملها رموزاً وليبني منها عوالم يتحدى بها منطق الذهب والحديد..."[٢].

وقد أخذ منه بقية الشعراء استخدام الأسطورة وتلقفوها منه بنفس المنحى والحس. ويبقى السياب على الرغم من كثرة آرائه واتصالها بفكره الجمالي بعيداً عن مستوى النقاد المتخصصين والكتاب المرموقين لأنها لاتشكل دراسات نقدية خالصة لها جوانبها الفنية وآفاقها الفكرية والجمالية، فهو لم يكن ناقداً محترفاً متخصصاً ولكن آراؤه ذات منحى جمالي ينير لنا الدرب في معرفة انطباعاته وأفكاره حول الشعر والأدب وهي مهمة لأنها خلاصة تجربة غنية.

والسياب وهو يعيش أزمته الكبرى نتيجة اخفاقاته المتعددة ومتاعبه التي لاتحصى، وجد في الأسطورة مرفأه الدافئ، وفي هذا الصدد يقول "الواقع ان الشاعر الان يعيش أزمته الكبرى، انه يعيش في عالم لايعطيه سوى علاقات متدهورة بين الإنسان والإنسان، وسوى تعكير وتحطيم مستمر لوجوده وإنسانيته. ان واقعنا لا شعري ولايمكن التعبير عنه باللاشعر أيضاً، ان الأسطورة الآن ملجأ دافئ للشاعر. ان نبعها لم ينضب ولم يستهلك بعد، ولهذا تراني الجأ إليها في شعري كثيراً"[٣].

ولم يجد السياب عن تراث أمتنا الزاخر بكل ماهو مضيء وجميل، فهو البذرة الصالحة التي أثمرت للسياب غذاءه وهو معينه واستقى منه تطلعاته وعني به عناية ممتازة

---

[١] جريدة صوت الجماهير، ١٩٦٣/١٠/٢٦.
[٢] مجلة شعر، العدد ٣، ص١١٢.
[٣] مجلة فنون، ص٨.

وتأثرت بأجوائه وصوره وأفاد منها في رسم المنحى الجمالي لابداعه الشعري. لقد وجد فيه شحنات روحية وإنسانية غنية في الشكل والمضمون والجوهر، رأى "وجوب دراسة الشعر القديم لما فيه من سبك ممتاز وبلاغة رصينة ولغة سليمة"[١]. والتراث فيه النفيس والسمين والغث وهو الوعاء الذي احتوى على تجارب ومآثر أمتنا بمختلف عصورها التاريخية وما مرت به من أحداث جسام.

وعلى الأديب والشاعر خاصة استلهام كل ماهو مشع ومضيء وغني ونقله بروح عصرية جديدة تناسب ماستجد في حياتنا المعاصرة وفي هذا الصدد يؤكد السياب "يجب ان نستفيد من أحسن ما في تراثنا الشعري"[٢]، ولعل من المناسب ان نذكر هنا قول الأستاذ نجيب المانع في مقالة له "ان موقف السياب من التراث العربي كان موقف الاحترام والعناية والاستلهام، وكان اتصاله به اتصالاً حيوياً عضوياً، وكان يعني بالشعراء الممتازين مثل أبي تمام وبعض الشعراء الأمويين مثل ذي الرمة، وكان له اهتمام خاص بالشعر الجاهلي"[٣].

وكانت قصيدته (هل كان حباً) من ديوانه الاول (أزهار ذابلة) تفصح عن ميول ورغبة السياب في الحفاظ على انسجام الموسيقى في القصيدة مجتمعة، وهي مستوحاة من مطالعاته في الشعر الإنكليزي، إذ هناك (الضربة) وهي تقابل (التفعيلة) عندنا، ففي ديوانه البكر، نوع من الموسيقى لا عهد به للقراء، وفي مقدمته لديوان أساطير يعطي للقارئ صورة لموقفه، قال، "لقد ثار أكثر من شاعر في كل بلد عربي، على تلك الموسيقى الرتيبة التي تأثر الشعر العربي بها، وتناولت الثورة في أول عهدها وحدة القافية، ثم تعدتها إلى الأوزان..... وقد رأيت ان من الإمكان ان نحافظ على انسجام الموسيقى في القصيدة، رغم اختلاف موسيقى الابيات..."[٤].

والسياب في قصائده يركز جهوده في الموسيقى العامة التي تنبعث من قراءة القصيدة كاملة وبنفس واحد، فتبدو موسيقى القافية (بنظر السياب) شيئاً ثانوياً، فعلينا أن نبدع شكلنا الشعري بموسيقاه الجديدة للتعبير عن حياتنا التي تختلف عن حياة القدماء، لأن الأشكال الشعرية القديمة لم تعد صالحة لاستيعاب المعطيات الجديدة، هذا مايؤكده

---

[١] خالص عزمي، ص٢٧.
[٢] رسالة الى يوسف الخال في ٤ مايس ١٩٥٨.
[٣] مجلة الكلمة، العدد ٢، ١٩٧٠، ص١٤.
[٤] مقدمة (أساطير)، ص٥، ٦.

السياب، هو وصحبه، الا ان كلامهم هذا لايعني رفض القديم بكامله والقضاء عليه، لأنه له سماته وروحه وجماله وقالبه، ولأنه إرثنا ممثلاً عبقرية أجدادنا، وخلاصة تجاربهم، وهو لايعني إهماله، بل يريد كما بينت سابقاً تجديده بتجدد الحياة لكون الحياة نفسها تتجدد بنا.

في كلامي هذا لاأريد ان أقف مع هذا الطرف وذلك، بل اكشف مواقف الطرف الجديد الذي يمثله السياب، الداعي إلى التجديد مع الحفاظ على التراث واستلهامه والتقاط شذراته المضيئة وسبكه سبكاً حديثاً فهو يدعو إلى الابداع شكلاً ومضموناً مستفيداً من كنوز لغتنا العربية وتراثها والشعر الخالد، ومن تجارب الآخرين في عالمنا المتحضر، فالشاعر الحديث غير ملزم بالعدة الموسيقية والموروثة من عصر وبيئة تختلفان عن عصرنا وبيئتنا. وقد أثبتت الوقائع والأحداث ان السياب جعل الوطن وقضايا الشعب والأمة العربية، وقضايا السلام والحرية ونضال الشعوب نصب عينيه، فقد غنى للعراق وشعبه، وكتب مقالات في مناسبات متفرقة تكشف عن وقوفه بجانب قضايا الوطن وأحب النضال، وكرس قلمه له، وليس هناك من ينكر ان السياب كان ممن وقع عليه عبء النضال وطنياً وقومياً، وبسبب ذلك عانى التشرد والحاجة والفصل. لأنه وقف مع الأدب الملتزم بقضايا الجماهير وأهدافها، ودعا إلى التعبير عن الحياة في كل نواحيها، فلابد ان يعبر عن الام المجتمع وآماله بإيحاء ذاتي وشعور خاص دون ان يدفعه أحد أو يكره على ذلك.

وهو في الوقت نفسه يمتاز بالصدق ازاء مايواجهه من أوضاع علاقات معقدة. وهذا يتطلب منه ان يهتم بالفكرة أو الأفكار المطروحة في قصيدته، ليؤدي رسالته كما ينبغي، فالمضمون ركن أساسي، وهو الغاية والشكل الا تابع له يخدمه في إيصال مايريده الشاعر الملتزم، وللسياب كثير من الآراء التي تدل على بعد نظره، نذكر منها قوله عن القصيدة الجديدة "لكل ثورة ناضجة من ان تبدأ بالمضمون قبل الشكل، فالشكل تابع يخدم المضمون والجوهر الجديد هو الذي يبحث له عن شكل جديد،ويحطم الإطار القديم كما تحطم البذرة النامية قشورها"[1].

ويرى ان الثورة على الشكل فقط ناقصة وسطحية، وحث الشعراء على أن يكون التغيير أو (الثورة) التي تتناول (الشكل) موازية للتجديد الذي يتناول (المضمون) لأن الخلل سوف يعود بالضرر، يقول "ان التجديد الهائل الذي تناول الشكل لايتناسب مع التجديد

[1] خضر الولي، ص١١-١٢.

الضئيل الذي تناول المضمون"[1]. فالسياب من كلامه هذا دعا إلى وحدة الشكل والمضمون مهتماً بالمضمون جوهراً أساسياً يتداخل في الشكل (التابع له)، ليخلق الطاقة الشعرية اللازمة لبناء القصيدة الفني. هكذا كان السياب في طليعة الأدباء الذين أسهموا في الحياة الفكرية منذ وقت مبكر من حياته.

كان يحفظ كثيراً من الشعر العربي القديم لاسيما الجاهلي منه، وكان معجباً بطائفة من الشعراء منهم ذي الرمة والمتنبي وأبي تمام وغيرهم من الشعراء الأفذاذ، ونعرف تتبعه للشعر وبداية نظمه، واطلاله على الثقافة والأدب الانكليزي مباشرة وعلى الأدب الفرنسي والادب الروسي مترجمين، أمّا عن خلاصة أحكامه وآرائه في قسم من الشعراء الذين شغلوا حيزاً من اهتمامه فنذكر منها ماستطعنا حصره ورصده، وقد ذكرنا قسماً منها.

في الصفحات السابقة وبينا موقفه من الشعر الذاتي وكان يتم عن شعور كبير بمسؤوليته ورسالته ورغبته في إذكاء جذوة الحياة، قال يوماً "انني أكره الشعر الذاتي، واعتبر الشعراء الذاتيين عملاء للاستعمار، حتى وان لم يشعروا هم بذلك"[2].

هذه هي الأفكار التي آمن بها السياب ودعا إليها، والمهم فيها اقترانها بالعمل، فالسياب كان مؤمناً بما يقول، وظل وفياً لأفكاره طوال حياته على الرغم من ضياعه السياسي في مطلع حياته الأدبية وعودته إلى الرشد بعد ذلك. وبعد أن نضجت شاعريته وعلا صوته وذاع صيته وارتفعت منزلته الأدبية في العراق والعالم العربي وأخذت قصائده طريقها إلى النشر في الجرائد والمجلات العراقية والعربية، وعرف القراء دواوينه الاولى وسار على خطاه شعراء آخرون ناحين منحاه في التعبير الشعري الجديد.

لقد مضى ينشر المقالات في الصحف وتذاع له اللقاءات وتنشر له المجلات وبعض الصحف لقاءات تستخلص آراءه في مسائل الأدب والشعر وما يتعلق بهما، ولاسيما بعد أن أصدر ديوانه الثاني (أساطير) وكتب مقدمته التي احتوت على بعض الآراء التي تطرقنا إليها سابقاً. وبعد أن أصدر ملحمته (حفار القبور) في عام ١٩٥٢ راحت بعض الصحف والمجلات تعقد معه لقاءات وتتناقش معه في أهم قضايا الأدب والشعر والشعراء. ومن الطبيعي ان يعجب ببعض الشعراء والنقاد وان يتحفظ من الآخر

---

[1] خضر الولي، ص١١-١٢.
[2] محمود العبطة، ص٨٣.

لحسابات خاصة، والواقع ان السياب لايتحدث عن شاعر إلاّ إذا كان متميزاً بالأصالة والقوة والتأثير في حركة الشعر العربي.

كان يرى ان الإعجاب يتبدل بتبدل الظروف، وحسب المراحل الزمنية أي ان تطور الوعي له التأثير الكبير في فرض الاعجاب، فهو معجب كثيراً بأبي تمام والمتنبي[١] وأول من تأثر به من شعراء العرب القدماء هو البحتري[٢]. ويبدو ان هؤلاء الشعراء الثلاثة ظلوا قريبين منه فأكب على دواوينهم قراءة وتمعناً، ولاريب في ان ثقافة السياب فتحت له آفاقاً جديدة واسعة بعد ان اطلع على ماأنتجه الشعراء العرب.

أمّا الشعراء العراقيون فيضع السياب (الجواهري) على رأسهم فهو ذو فضل كبير على مسيرة الشعر العربي في فترته الحديثة، والشعراء الشباب مدينون له بالشيء الكبير "فهو قمة من قمم الشعر العربي في كل عصوره، وأعظم شاعر ختم به النهج التقليدي للشعر العربي"[٣] ولايخفي اعجابه بـ(الياس أبو شبكة) من الشيوخ، ومحمد مفتاح الفيتوري من الشباب[٤]، وسبب إعجابه بهؤلاء الشعراء تأثرهم بأساليب الشعر العربي القديم ومعانيه وصوره التي تغلغلت في نفوسهم وسيطرت على وجدانهم وانعكست في شعرهم، كان السياب معجباً بهم "لأن شعر كل منهم- على مابين الثلاثة من فوارق- تتحقق فيه أكثر المثل الشعرية التي اعتبرها كفيلة بأن تجعل من الشاعر شاعراً مجيداً بمتانة الأسلوب، وحرارة العاطفة دون ميوعة، والموازنة بين الفكرة والصورة والعاطفة والاتجاه الواقعي"[٥].

ولم ينس تأثير الشاعر المصري (علي محمود طه المهندس) لأنه عن طريقه تعرف على آفاق جديدة من الشعر، حين قرأ ترجمات للشعراء الإنكليز والفرنسيين أمثال شيلي، وبودلير، وفرلين، يقول "وقد دفعني اشتياقي إلى التعرف بالمزيد من هذه الافاق إلى تعلم اللغة الانكليزية لقراءة الأدب العالمي". ومادام السياب يميل إلى الشعر الذي يبقى تأثيره وتزداد روعته بتقادم الزمن فهو يتحفظ من شعر نزار قباني ويقول "ان شعر نزار أشبه بالشيكولاته تحسه مادام في فمك، إلاّ ان طعمه يزول عندما تنتهي من مضغه"[٦].

---

[١] محمود العبطة، ص٨١.
[٢] مجلة الحياة العراقية، ١٩٥٦.
[٣] خضر الولي، ص١٧.
[٤] نفسه، ص١٧.
[٥] نفسه، ص١٧.
[٦] مجلة فنون، ص٨.

أمّا عن الشاعر البياتي الذي كثر الكلام عن دوره في مسألة الريادة والاختلاف في مسائل متشعبة مع السياب ذكرتها الكتب والمجلات التي زامنت نشوء دعوة الشعر الجديد (الحر). وكان السياب يقتنص بعض المناسبات ليدلي برأيه حول كثير من المسائل مع البياتي وعودة الى رسائله ولقاءاته توضح ذلك، فقال عن البياتي انه "مايزال حتى الآن وفي أحيان كثيرة عالة على شعري واستطيع إثبات ذلك بالنصوص" بمجرد الكلام المطلق على هواهما.

أمّا عن الشاعر أدونيس فكانت تربطه به علاقة صداقة وثيقة وبينهما مراسلات عديدة تفصح عن اعجاب واحترام وحب، قال في رسالة أرسلها إليه "ان كنت مشتاقاً إلى شخص.. فإليك. لماذا كنت شاعراً عظيماً إلى هذا الحد وانساناً طيباً؟ أرجو ان تكون مرتاحاً في حياتك وفيراً في إنتاجك... وسرتني رسالتك سروراً كثيراً لأنها دلت على ان لي صديقاً ينقذني ويشتاق إليّ...."[١].

وكان معجباً اعجاباً كبيراً بقدرة صديقه (جبرا إبراهيم جبرا) لقدراته الابداعية في الشعر والرواية والترجمة إضافة إلى مواقفه النبيلة تجاهه وتجاه عائلته وخاصة ايام المحن الشديدة التي مرت به كتب له "كم أنا مشتاق اليك، إلى حديثك العذب .... شوقاً لا سبيل إلى وصفه"[٢].

أمّا الدكتور سهيل ادريس، فكان يجله كثيراً في رسائله ويذكر دوماً فضائله، ويود ان يوفق إلى إرضائه بعد ان فتح له (مجلة الآداب) لنشر قصائده دائماً، كذلك الحال مع الشاعر اللبناني (يوسف الخال) وغيره من الادباء والشعراء.

ويبدو ان وراء مدح السياب لـ(ادونيس) و(جبرا) و(سهيل ادريس) دوافع شخصية وأدبية لارتباط السياب بهم بصداقة وعلاقة قوية امتدت سنوناً طويلة فقد آزروه وخففوا عن كاهله أحياناً كثيرة في سني حياته. إضافة إلى اعجابه بابداعهم الادبي فأضحى السياب مطمئناً وهو في وسطهم لمنصبه ومجده الشعري ولأنهم لايدخلون في دائرة التنافس حول هذا المجد.

أمّا البياتي ونزار وحتى نازك فهو يحسب لهم حساباً خاصاً إذ لايتوقع منهم نفعاً وتعكس لنا الأحداث بأن كان هناك صراع خفي وظاهر بين السياب وبينهم حول قضايا

---

[١] بتاريخ ٦٣/٤/٥.

[٢] رسالة الى جبرا ابراهيم جبرا بتاريخ ٢٥ شباط ١٩٦٢.

عدة تدخل في قضية ريادة الشعر الجديد ومسألة الابداع الشعري والثقافي وغيرها من القضايا، فمن الطبيعي إذن أن يكون هناك تحفظ من السياب في آرائه حولهم لأنهم نافسوا مجده الشعري.

أمّا عن الشاعرات أو (شعر المرأة) فقد وجد السياب في شعر السيدة سلمى الخضراء الجيوسي مايثير إعجابه لأنها "استطاعت ان تعبر بعمق وصدق وجمال عن أعنف عواطف المرأة"[١]. والسياب يرفض تسمية (الشعر النسائي) لأنه لايناسب ما للمرأة من دور متميز في المجتمع الحاضر، فهي لم تعد دمية يلهو بها الرجل كما يشاء، فالشعر هو الشعر سواء أكان صادراً من رجل أم امرأة ومع هذا فإنه يبدي إعجابه بالشاعرة العراقية (نازك الملائكة) ويتمنى "ان يفيق شعرها من الانتكاسة التي حلت به أخيراً"[٢]. وعناية السياب بالأدب الأجنبي ومنه الانكليزي واتقانه اللغة الانكليزية جعلته ينهل من عيون الأدب الانكليزي مباشرة ويستلذ بفنه، كما استقى منها بعض الصور والرموز وجسدها في شعره وكان جون كيتس (أحبهم إلى نفسه) ويعترف بـ"انه متأثر (بعض التأثير) بكيتس من ناحية الاهتمام بالصور فهو يعطيك في كل بيت صورة، وكان كذلك معجباً بشكسبير من ناحية الاهتمام بالصور التراجيدية العنيفة"[٣].

وقد استهواه في فترة رومانتيكية (سن المراهقة) الشعراء الرومانتيكيين الانكليز وكان "أحبهم الي الشاعر جون كيتس"[٤]. وانه قرأ لهوميروس وفرجيل وغوته وغيرهما.... أمّا معرفته بمستوى اليوت فإنها معروفة ولو انها نضجت أبان دراسته الجامعية في قسم اللغة الانكليزية وفيما بعد، فقد شدّه أسلوب ت.س.اليوت[٥] على الرغم من تناقضه معه في أفكار كثيرة، وقد أثارت قصيدة اليوت الذائعة الصيت (الارض الخراب) فاستمد منها هواجس كثيرة. لقد التقى السياب باليوت في جمعهما بين الجديد وبين الموروث في الشعر وشدة تأثير شعر اليوت وايديث سيتويل في شعر السياب من أهم المؤثرات التي ساهمت في تطوره الشعري ويوضح نجيب المانع ملامح هذه المؤثرات قائلاً "تأثر انفعالياً وعلى

---

[١] جريدة صوت الجماهير، م.س.
[٢] خضر الولي، ص١٧.
[٣] العبطة، ص٨٢.
[٤] جريدة صوت الجماهير، م.س.
[٥] للمزيد أنظر: عبد الجبار عباس، مجلة الكلمة، السنة ٣، كانون الأول، ١٩٧٠، ص٢٦ ومابعدها (بين السياب واليوت).

السطح بالشاعر ت.س.اليوت، وتعرض في أعماقه بالشاعرة ايديث سيتويل والرموز المسيحية وخصوصاً فكرة الفداء...".

وبعد فإن ثمة آراء أخرى للسياب في الأدب والشعر والنقد تشكل اشتراطات فنية في العمل الأدبي بصورة عامة، وتوضح وعي الأديب وخبرته منها تأكيده دور الشعر وأهميته بوصفه رسالة يناضل الشاعر من أجلها ويكابد مايكابده باعتبار الشعر (فناً حضارياً)[١].

ويقول السياب انه عن هذا الرأي انبثقت قصيدته (في المغرب العربي) وطالب الناقد بالتزام منهج معين في النقد وان لايكون رأيه منصباً على شخص الشاعر بل على شعره، وان يكون منصفاً ويبعد العاطفة عن حكمه[٢]. ويرى ان الادب يمثل صراع الإنسان المستمر بين الخير والشر على ان يرمي بكل ثقله في جانب الخير ويعطي السياب للأدب أهمية كبرى "هكذا كان الادب ومايزال سلاحاً من أسلحة الانسان التي شق ويشق بها طريقه نحو حياة أفضل. وكان الاديب العربي واحداً من أدباء العالم الذي أدركوا وظيفة الادب منذ أقدم العصور"[٣].

وقد شكلت رسائل السياب الشخصية جانباً مهماً من حياته الادبية فعكست وأنارت الكثير من أجواء حياته وأدبه، لذا آثرت ان أتناولها في بحث مستقل ان شاء الله.

بغية الوقوف بثبات على مسار مرجعيات السياب النقدية في سنوات حياته الأدبية على الرغم من "قصرها" الزمني لابد لنا من الرجوع إلى البدايات الأولى لنشأته، وما طرأ عليها من أحوال وظروف وتقلبات انعكست على حياته الثقافية، ولابد أيضاً من الإشارة إلى الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي عاش السياب في خضمها خلال تلك الفترة.

كانت المرحلة التي ولد فيها السياب ثم نشأ وترعرع مرحلة قلقة محرجة من تاريخ العراق، كان الوطن يغلي، والروح الوطنية الوثاقة فائرة، وثورة العشرين الوطني لم يضعف صداها بين أرجاء العراق والوطن العربي وما انفك المستعمرون يتلاعبون بمصير البلاد وحملوا الوطنيون لواء المعارضة والثورة بوجه المستعمرين طالبين الحرية والتحرر للعراق

---

[١] مجلة الكلمة (الغريزية والمكان ومنطقة الظل عند السياب)، ع ٢٠، ١٩٧٠. وينظر: مجلة الآداب، العدد ٦، حزيران ١٩٥٦، ص٧٤.

[٢] مجلة الاداب، (هذا النقد الحديث للسياب)، العدد ٤، ١٩٥٥، ص٦١-٦٢.

[٣] وسائل تعريف العرب بنتاجهم الادبي الحديث، ص٢.

العربي.. والمد الثقافي بسط نفوذه على المجلات والصحف على قلتها وبساطتها حينذاك، وآمن الوطنيون والسياسيون بأن للأدب دوره الفعال، فمن طريقه تبعث الهمم وتوقظ النائمين من سباتهم.

كل هذه العوامل والخواطر والمشاعر والأفكار قد اختمرت في ذهن السياب الشاب فهو على حرمانه ومرضه واحباطاته في حياته الخاصة، كان ذا عقلية متفتحة صافية، لقد عرف قدر نفسه منذ البداية، وشق لحياته طريقاً يعتمد على نفسه، بعد أن نمت بذرة موهبته، فرعاها، وحصنها، وأغناها بقراءات عديدة منذ مطلع شبابه، يساعده على ذلك الإحساس الشديد والطموح الذي كان يملأ قلبه ويجعله موقناً بأنه سيكون ذا شأن، فالذكاء سمته الواضحة منذ طفولته، شهد بذلك اصدقاؤه وأترابه وأقرباؤه، ففي المرحلة الابتدائية كان طالباً متميزاً، واستمر تميزه إلى أن تخرج من دار المعلمين العالية، وعاش تجربة الوظيفة، وخالط الأدباء والمثقفين ثم أصبح اسماً لامعاً بين الأسماء الأدبية في العراق بعد نشر ديوانه البكر (أزهار ذابلة).. فمن الطبيعي أن يكون للأديب مكنوز ثقافي يستطيع من خلاله ان يواجه مستلزمات الحياة، فالموهبة العظيمة تحتاج إلى صقل وتدريب ورعاية ونمو وتطور، فهي حصيلة جهد مضنٍ من الدراية والدربة والصبر والمثابرة، وكان السياب أهلاً لذلك.

وإذا أردنا أن نتعرف على مرجعياته النقدية سنجد اننا أزاء رافدين رفدا السياب ليكونا ثقافته العامة وآراءه النقدية وقد ظهرت آثارها في شعره ونثره وحياته. ولابد من الإشارة إلى ان هذا الموضوع قد أثار جدلاً واسعاً بين الأدباء والنقاد فرأينا من يؤيد تميز السياب بالثقافة الواسعة التي تقوده إلى مواقف نقدية في قضايا الشعر والنقد، ومن ينكر ذلك. نذكر منهم الأستاذ (سامي مهدي)[1] الذي كتب مقالات حول الموضوع خلص فيها إلى القول بأن السياب كان ذا ثقافة عصرية قاصرة، جعلته عاجزاً من أن يكون صاحب تجديد شعري (إلا ضمن استثناءات قليلة). ولا أريد ان أدخل في جدل، لأن هذا القول مع احترامنا للأستاذ سامي مهدي، فيه شيء من التجني على الأديب الراحل، لقد طالبه بأن يتقن الإنكليزية بطلاقة، وأن يكون مترجماً ممتازاً، ومما قاله ان السياب يفتقر إلى الوعي التجديدي، وهم حكم قاس لايستحقه السياب وان حياته الأدبية والثقافية المتشعبة تؤيد عكس ذلك، وهذا ما سوف أتناوله في هذا المبحث ولأن الباحث الذي يتناول السياب لابد

[1] أنظر: مجلة آفاق عربية، عدد حزيران، ١٩٨٥، ص٢٧، وعدد ٦، ١٩٨٥، ص٥٠-٦٠.

ان يحترم أدبه، فالسياب امتاز بحرصه على التزود بما يغنيه ويثريه، فهو إذا لم يفتقر إلى الوعي التجديدي، لقد كان المامه بالتراث الشعري العربي واسعاً شاملاً منذ البداية فقد التهم كتب الأدب القديمة، وتجول بين رياضها مدة طويلة، ومنذ بداية دراسته الثانوية ثم خلال دراسته في دار المعلمين في بغداد فدرس المتنبي والبحتري وأبا العلاء، وقرأ المطولات، وهضم كنوز الاجداد من الثقافية والفكرية، وفي بداية دراسته العالية انتقل إلى فرع اللغة الانكليزية بعد أن غادر فرع اللغة العربية، لا نكاية بلغته العربية، بل رغبة في اتقان هذه اللغة الأوربية الغنية والاطلاع على كنوزها الأدبية، بعد ان استحوذ حب الأدب على نفسه، أراد ان يتحصن بسلاح فعال هو إجادته اللغة الأنكليزية ليطلع على عيون الشعر الإنكليزي، ويغرف من مناهله بلا وسيط، فهضم أدب شكسبير، وكيتس والشعراء الرومانتيكيين وسيتويل وت.س. اليوت، واطلع على روائع الأدب الفرنسي المترجمة، وشارك في أمسيات ومؤتمرات أدبية متفرقة، فهل هذا الاطلاع الثقافي الواسع غير كاف لتجديد وعيه. ان ثقافته في ضوء الظروف والمعطيات التي واجهته كانت واسعة وجيدة، كما إن جمهرة الباحثين والنقاد يكادون يجمعون على ثقافة السياب التراثية والجديدة بأنها واسعة. فقد جمع بين الثقافة الأدبية العربية والثقافات الأجنبية، وكان مطلعاً أيضاً على كثير من جوانب الثقافة السياسية ولاسيما الثقافة الماركسية قبل أن يتحول من الشيوعية إلى القومية، ثم اطلع بعد ذلك على التطورات القومية التي غزت موقفه السياسي والفكري الجديد، لاسيما عندما بدأ يكتب المقالات السياسية في الصحف والمجلات، من قبيل مقالاته (لقد كنت شيوعياً). هذا وقد رد كثيرون على مقالة (سامي مهدي) وناقشوا رأيه وموقفه من ثقافة السياب السالف الذكر، نذكر منهم عزيز الحاج[1] والدكتور علي الزبيدي، ويوسف نمر ذياب[2] وغيرهم.

ثقافته الموروثة:

أنهى السياب دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس البصرة، ومن الطبيعي أن يكون الأديب الموهوب مستوعباً وملماً لواجباته المدرسية، ولاسيما وأن بذرة الشعر كانت قد نمت ووجدت المناخ المناسب لنموها، وقد خطا السياب في هذا المضمار خطوات واسعة،

---

[1] ينظر: عزيز الحاج، (لا دفاعاً عن السياب.. بل عن الشعر الحديث كله).. مجلة الطليعة العربية، العدد ١٢٣، ١٦ أيلول، ١٩٨٥، ص٤٦-٤٧.

[2] ينظر: يوسف ذياب، (بدر شاكر السياب، الشاعر.. القضية)، الف باء، العدد ٩٠٠، ٢٥ كانون الأول، ١٩٨٥، ص٥٢.

فأضحت دواوين المعري والمتنبي والشريف الرضي وغيرها زاداً غنياً له، يقرأ المطولات ويحلل صورها ويتخيل أجواءها، ويعيش في أحداثها، ساعدته في المضي في مطالعاتها أجواء جيكور الريفية وما فيها من هدوء وجمال، وبعد تخرجه من الثانوية عام ١٩٤٢ وحزم حقائبه البسيطة إلى بغداد العاصمة مدينة الأدب والثقافة، كان السفر إلى بغداد تجربة جديدة وفنية، لأن بغداد كانت العاصمة التي يتركز النشاط الفكري والثقافي الزاخر بالتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي كانت الوحيدة في العراق التي توجد فيها الكليات ومعاهد الدراسة العالية. قضى السياب سنوات دراسته فيها وهو يمتلك الأرضية الصالحة والموهبة الأصيلة. واختار دار المعلمين لأن الدراسة فيها كانت مجانية ولم يكن باستطاعة عائلته ان تتكفل بدراسته في مكان آخر، واختار بدر في دار المعلمين فرع اللغة العربية.. وتوزعت حياة الشاب الغريب في مشاغل جديدة واهتمامات طارئة، وجد نفسه مشدوداً إلى بعضها ووجد نفسه غارقاً في بعضها الآخر[١]، وخلال هذه المرحلة عرفت بغداد شاعراً جديداً وحين هبط المدينة تلقاه صديقه خالد (الشواف) وأخذ بيده ليعرفه إلى زواياها ومنعطفاتها، ولم يطل به الوقت حتى تعرف إلى عدد غير قليل من الأدباء والمتصلين بالحركة الأدبية[٢].

ومنذ السنة الأولى في دراسته في دار المعلمين العالية، كانت القراءات والمطالعات هوايته المفضلة بعد قول الشعر، هذه القراءات أثرت بعضها في منحى تفكيره، فشغف بالتراث كما بينا، وقرأ دواوين أشهر الشعراء القدامى، كما قرأ كتب الادب وكان (الشعر والشعراء) لابن قتيبة قريباً إلى نفسه، كما اطلع على شعر (علي محمود طه) و(إبراهيم ناجي) وأدباء المهجر، وكبار الشعراء المعاصرين، وعلى الرغم من اطلاعه على ترجمات الشعر الغربي (لشللي) و(الفريد دي فينيه) و(دي موسيه)، فقد كان شغفه بأبي تمام كبيراً يحفظ شعره، ويعيش في أجواء قصائده "فهو يحب هذه النسمات الغربية ولكن صداقته للشعر العربي ماتزال أشد قوة ومتانة"[٣].

وإذا تفحصنا شعر السياب نحس بما كان عليه من ثقافة واطلاع، وتبرز فائدة اطلاعه على الآداب الإنسانية في استخدامه الأسطورة، بحيث استعان بما جاء من الآثار اليونانية من إشارات أسطورية، كاستخدامه لرمزي (أوديب) وأمه (جوكاستا) وغيرها من

---

[١] ناجي علوش، مقدمة الديوان، ص٣١.
[٢] إحسان عباس، بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره، ص٤٧٠.
[٣] المصدر نفسه، ص٧٢.

الرموز، وتظهر عبقريته وثقافته في تحويل هذه الرموز والأساطير من إطار الذات إلى مواقف اجتماعية متنوعة[١].

ومن الطبيعي ان يكون هذا الابداع حصيلة ثقافة عالية، وجهد من الاستيعاب، وقدرة فائقة على التركيز، تساعدها موهبة أصلية، وقد اجتمعت كلها عند السياب.

لقد كان السياب قارئاً نهماً؟ يندر ان تجده بدون ان يتأبط كتاباً، وعرفته مقهى (الزهاوي) و(حسن عجمي) حيث يلتقي هناك مع لفيف من أدباء ذلك العصر، وهو على اتصال فيما تنشر المجلات الأدبية الشائعة آنذاك مثل الأديب والآداب والرسالة والثقافة والطريق وغيرها، كان يتمنى أن يطول به العمر وتتحسن صحته ليحقق حلمه بقراءة علم الفلسفة يقول "لو تتحسن صحتي لحققت مشروعي الذي أمامي: قراءة الفلسفة. لقد آن أن أحقق هذا المشروع الذي وضعته منذ أمد بعيد، فما تهيأت لي الفرصة للمضي فيه إلا بصورة متقطعة"[٢].

وفي سني عمره القصير، حرص على حضور المؤتمرات الأدبية حضوراً متميزاً، وهذا يتطلب منه أن يكون بمستوى المسؤولية أمام أبرز أدباء الأمة آنذاك، فقد حضر مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد بلودان عام ١٩٥٦، وسافر إلى روما لحضور مؤتمر الأدب العربي عام ١٩٦١، حيث ألقى محاضرة بعنوان (الالتزام واللاالتزام في الأدب العربي الحديث) إضافة إلى اشتراكه محرراً في الجرائد والمجلات فازداد ثراء وتجربة.

يقول د.لويس عوني "هو ثالث لايذكر الشعر الحديث في العراق إلا ويذكرون وهؤلاء هم نازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي، وبدر شاكر السياب... كان قطباً من أقطاب الشعر الجديد، وعموداً ضخماً من أعمدته القليلة الضخمة، وقد خسر الشعر الجديد كثيراً بعد أن هوى هذا العمود.." [٣].

ويقول محمود العبطة المحامي في الصدد "كان لدخوله دار المعلمين العالية في بغداد، فرع اللغة العربية عاملاً فعالاً للمضي مع موهبته الشعرية الفائرة التي وجدت في الشعر العربي الأصيل بغيتها وغاياتها فحفظ القصائد الطوال من طراز الشعراء الذين ذكرت أسماؤهم في أكثر من مكان... وقرأ كثيراً من الكتب الجديدة التي كانت تتقاطر من

---

[١] للمزيد ينظر: عبد الرضا علي، الاسطورة في شعر السياب، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨.

[٢] رسالة إلى جبرا إبراهيم جبرا، بتاريخ ١٩٦٣/١٠/١٥.

[٣] عبد الجبار البصري، السياب رائد الشعر الحر، ص٩٦.

مطابع القاهرة وبيروت والشام، وما تصدره مطابع بغداد من كتب تقدمية ذات بذور مهمة اجتماعية وسياسية وثقافية"[١].

وأظن ان مقياس الشاعرية لايقاس على ثقافة الشاعر، أي ان ثقافة الشاعر لاتقود إلى شاعريته، ولايجوز ان نربط بين عطاء الشاعر وثقافته، ولكن في الوقت نفسه ان ثقافة الشاعر تزيد وتغني شاعريته عطاءً وثراءً المهم ان يعي الشاعر كيفية (توظيف) ثقافته في شعره[٢].

ويؤكد الناقد يوسف نمر ذياب على أن السياب كان شاعراً مثقفاً بين أقرانه "السياب كان شاعراً مثقفاً بمعاصريه.. كما كان أي شاعر قديم مثقفاً، ولايصح ان يقارن شاعر بثقافة شعراء أتاح لهم التقدم الحضاري والثقافي ما لم يتح لذلك الشاعر... ولا أحسب ان احداً من شعراء العراق ولا غير العراق من هو أكبر منه حتى الآن.. إذا وزن النقد الشعر العربي المعاصر بميزان الذهب"[٣].

فالتراث العربي بكنوزه الثمينة كان موضع العناية لدى السياب، ويحرص على الاعتناء به كما بيّنا سابقاً "فموقفه من التراث العربي كان موقف الاحترام والعناية والاستلهام، وكان اتصاله به اتصالاً حيوياً عضوياً.." [٤].

ألا يكفي هذا لأن نؤكد القول بأن ثقافة السياب التقليدية كانت متميزة وغنية، وهو لم يكتف بذلك بل أكب على مايقع في يده من الكتب المتنوعة خارج إطار الأدب العربي، فوسع بذلك ثقافته بزاد جديد.

وليس أدل على سعة ثقافته الأدبية التقليدية إن صح التعبير من نصاعة أسلوبه الشعري وغير الشعري، فالجملة في شعره تجمع بين قوة السبك وصحة العبارة وسهولتها، ولايعيبها تقديمه إياها في صيغ جديدة ويندر أن تجد فيها أخطاء نحوية أو لغوية إذا استثنينا استعماله أحياناً لعدد من الألفاظ العامية أو الأجنبية، لأن هذا النوع من الاستعمال له شأن آخر.

فضلاً عن هذا ان شعره ونثره زاخر بالدلائل الكثيرة الدالة على سعة اطلاعه على الأدب العربي القديم، وقد تمثل ذلك في ترديد لعدد من أسماء الشعراء الأعلام، وبعض

---

[١] محمود العبطة، بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة، ص٧٤.
[٢] يوسف نمر ذياب، بدر شاكر السياب، الشعر.. القضية، ص٥٣.
[٣] المصدر نفسه، ص٥٣.
[٤] نجيب المانع، الغريزية والمكان ومنطقة الظل عند السياب، الكلمة، ع٢، ١٩٧٠، ص١٤.

إشارته إلى بعض القصائد أو تضميناته لعبارات شعرية من ابيات أو أنصاف أبيات معروفة أو كثيرة التداول بين الشعراء، ولكنه كما لاحظ دارسوه لم يكن مقلداً بل كان يستعين بثقافته القديمة للتوصل إلى إضافات شعرية وفنية ولغوية جديدة.

ثقافته الحداثوية:

لم يكتف السياب بما تلقفه من قراءات متنوعة وعديدة ضمن إطار التيار الأدبي والشعري العربي منذ عصر الجاهليين إلى آخرها ماتوصلت إليه حركة الأدب من تيارات وصرعات حديثة، تأثر بها "وعرف تفاصيلها" ووعى حاجته إلى التزود بالآداب الأجنبية، ولاسيما إذا ماعرفنا شهرة الآداب الإنكليزية والفرنسية والروسية، وكيف اخترقت حدود بلدانها لتصل إلى أكثر بقاع الدنيا وكان للعراق حصة منها.

وكان لانتقال السياب إلى فرع اللغة الإنكليزية خطوة نوعية وخطيرة غيرت مجرى حياته، بعد أن ألم بالتراث العربي الغني بكنوزه، فعشق شعر (شكسبير) و(ستيويل) و(ت.س. اليوت)، وتأثر بصور الأخيرين الشعرية، لاسيما اقتباس الرموز والأساطير، وكانت أشعار ت.س.اليوت، قلما تفارقه، وقصائد (سيتويل) يعشقها غاية العشق.

فضلاً عن ذلك إنه كان يدرس تاريخ الأدب الانكليزي والمدارس الشعرية والعصور الأدبية وتاريخ النقد الأدبي، فضلاً عن الدراسات الفنية للنثر الإنكليزية، وتاريخ الشعر المسرحي، واللغة الإنكليزية، وغير ذلك مما يدرسه عادةً طلاب الجامعات والكليات في قسم اللغة الإنكليزية، كما كانت المناهج تتضمن أيضاً دراسات موجزة للآداب الأوربية الأخرى، ولا تخلو من حفظ وتحليل لعدد من النصوص الشعرية والنثرية المترجمة إلى الإنكليزية.

فثقافته الجديدة كانت متميزة، وهو ان وقع في أشد حالات المرض، يشعر بأن لا زاد له إلا القراءة، بعد أن يئس من الشفاء، وأضحى الموت زائره القريب[١]، وفي ذهنه يريد أن يتطور ويجدد "وكان الفتى يغذي نفسه بكل مايجعل منه شاعراًن واذا تنقل بين فرعي اللغة العربية واللغة الإنكليزية دليل على وعي خاص هيأ له فهماً أكثر ووطد فيه الاهتمام الجدي بثقافتين وشعرين، ولابد من اللغة الأجنبية لمن أراد أن يتطور ويجدد"[٢].

وقد شغف بالشعراء الرومانتيكيين الإنكليز قال "أما من الشعراء الأجانب فقد كان الشعراء الرومانتيكيين الإنكليز أول من استهواني، ذلك أني كنت حين عرفتهم في سن رومانتيكية هي سن المراهقة، كان أحبهم إلى الشاعر (جون كيتس)"[٣]. هذا الإعجاب تم بعد أن تكون لديه أسلوبه الخاص وشخصيته الشعرية، وصوته الشعري المستقل، مع هذا كان هناك خيط سحري يربطه بهم، وبدا تأثيرهم واضحاً في شعره "فشكسبير وجون كيتس أحبهم إلى نفسي، وأكاد أعتبر نفسي متأثراً (بعض التأثر) بكيتس من ناحية الاهتمام

---

[١] ينظر: مقالة خالد علي مصطفى، مصدر سابق، ص٧.

[٢] د.علي جواد طاهر، السياب الظاهرة الحية، ص١٠١.

[٣] جريدة صوت الجماهير، (مقابلة أجريت مع السياب) بتاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٦، العدد ٢٢.

بالصور، بحيث يعطيك كل بيت صورة، وبشكسبير من ناحية الاهتمام بالصور التراجيدية العنيفة، وأنا معجب بتوماس اليوت من الشعراء الإنكليز المعاصرين، متأثراً بأسلوبه لا أكثر لأنني نقيضه تماماً من حيث الفكرة، ومن حيث نظرتي إلى الحياة"[١].

أما الشعراء الفرنسيون، فقد قرأ السياب لهم عن طريق ترجمات الشاعر المصري (علي محمود طه المهندس) وغيره لـ(بودلير) و(هوغو) و(الوار) و(اراغون).

وكان لايهول الأمور، ولايبالغ بقدرته، ولايدعي الإلمام بكل مفردات الثقافة الأدبية وآدابها، وما هو إلا هاو محدود القراءة، ولم يتبجح يوماً بأنه (موسوعة معارف) كما يفعل الآخرون يقول الحق انني لست (دائرة المعارف البريطانية) ولا أحسن من اللغات الأجنبية سوى الإنكليزية ولم أقرأ في هذه اللغة إلا آثار القليلين من شعرائها، وآثار بعض الشعراء الاوربيين المترجمة إليها...)[٢]. وكلام السياب هذا لايعني ضآلة ثقافته. إنما يعكس لنا تواضع السياب وعدم غروره وهي بلاشك من سمات وأدوات الأديب الكبير. والواقع ان اهتمامات السياب بالأدب الإنكليزي أفاده شعرياً وفنياً، وطور أدواته الشعرية وأفاد من الرموز في استخدام طرائق جديدة غنية، ونجح في حسن استغلال الاساطير ومعطياتها وما تحتوي من دلالات[٣] (فراح يطالع بالإنكليزية عيون الأدب الغربي يترجم بعضه متأثراً ومطوراً في ذات الوقت بأدواته الفنية في الشعر، مكتشفاً في الرموز وفي الأسطورة معطيات جديدة أغنى بها شعرنا العربي الحديث بالكثير من الدلالات...[٤]

لقد هيأ شاعر قصيدة (الأرض الخراب) مثلاً يطمح له السياب، ووجد فيه مايستجيب الهوى في نفسه وهو حقاً قرأ لروبرت بروك، وادغار الان بو، وايديث ستويل وغيرهم، إلا ان اليوت علمه كيف يجتر المرارة والضياع واليأس، ومن هنا وسم بميسمه[٥].

وأنا لاأريد أن أدخل في موضوع تأثر السياب، واقتباساته من الرموز الإغريقية والبابلية لأشياعه من قبل الباحثين في كتب ورسائل عديدة في موضوعات مستقلة في أكثر من كتاب ومجلة عربية.

أما مترجماته الشعرية والنثرية فإنها تعكس لنا مقدرته وقابليته الجيدة وقد ذكر خالص عزمي في كتابه (صفحات مطوية من أدب السياب)[٦]، مسرحية من فصل واحد (الشاعر والمخترع والكولونيل) وهي للكاتب الروسي (بيتر اوستينوف) و(عيون الزا أو الحب والحرب) للشاعر الفرنسي (لويس اراغون) و(قصائد مختارة من الشعر العالمي الحديث) و(ثلاثة قرون من الأدب) بالاشتراك مع يوسف الخال، فخري خليل، وفاروق محمد يوسف، ود. عبد الواحد لؤلؤة، وله روايات ترجها لحساب مؤسسة فرنكلين الأمريكية

---

[١] مقابلة أجراها العبطة مع السياب في الخمسينيات، كتاب، السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق، ص٨١-٨٢.

[٢] خضر الولي، آراء في الشعر والقصة، ص١٣-١٤.

[٣] ينظر: د.خليل إبراهيم العطية، التركيب اللغوي لشعر السياب، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٦، الموسوعة الصغيرة، العدد ١٨٣.

[٤] محمد الجزائري، بدر شاكر السياب المراهق، الآداب، ع٣، آذار ١٩٧١، ص٢٢.

[٥] د.أحمد كمال زكي، السياب، الرسالة، العدد ١٠٩٨، ٢٨ يناير، ١٩٦٥، ص٢٣٤.

[٦] خالص عزمي، مصدر سابق، ص٤٥.

هما الجواد الادهم لـ(وولتر فالي) ومولد لـ(فرجينيا س. ابفرت)، ومجموعة من القصص القصيرة الشعبية نشرها في الملحق الأسبوعي لجريدة الشعب في عامي ١٩٥٦، و١٩٥٨ ذكرها عبد الرضا علي في كتابه الأسطورة في شعر السياب، وقد تعذر لنا العثور عليها، والقصص أو (الحكايات الفلكلورية) التي تحدثت عن الريف في البصرة هي (كأس حلاق القرية) نشرها في ١٨ كانون الثاني ١٩٥٦، و(شجاعة في يوم قائظ) في ١ شباط ١٩٥٨ و(خالقو) يذهب إلى المدرسة في ١٥ آذار ١٩٥٨، و(عبد الماء في شط العرب) في ١٢ تموز ١٩٥٨.

لا ريب أن ما أوجزناه في هذه الصفحات القليلة عن ثقافته الجديدة العربية والأجنبية له تأثير متعدد الأشكال، لا في شعره فقط بل في نثره أيضاً، وهو ما يهمنا ويهم كل من يدرس نتاجه النثري، فمقالاته وتصريحاته وملاحظاته التي تتناول الشعر الإنكليزي، وذكر من الآراء النقدية، وبعض الملاحظات عن خصائص هذا الشاعر أو ذاك، أو عن نهج السياب الفني نفسه، هي في الغالب ثمرة مطالعاته ودراساته لنتاج الشعراء الإنكليز وأقوال مؤرخي الأدب، ومباحث النقاد المعروفين.

وكان المنهج الدراسي في قسم اللغة الإنكليزية يجعل طائفة من الكتب المهمة في الاختصاصات الأوربية والنقدية ضمن مفردات الدراسة، كما كانت مطالعاته الخارجية تزود بكثير من المعلومات التي انعكست في مقالاته أو رسائله أو تصريحاته الصحفية.

المصادر

أولا: الكتب

١. آراء في الشعر والقصة، خضر الولي، طبعة (١)، دار المعرفة، بغداد، ١٩٥٦.
٢. الاسطورة في شعر السياب، عبد الرضا علي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨.
٣. بدر شاكر السياب، حياته وشعره، إحسان عباس.
٤. بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الحديثة في العراق، محمود العبطة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٥.
٥. التركيب اللغوي لشعر السياب، خليل إبراهيم العطية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ع١٨٣.
٦. ديوان أساطير، بدر شاكر السياب، منشورات دار البيان، مطبعة الغرى الحديثة، النجف، ١٩٥٠.
٧. ديوان في طريق الحياة، الفريد سمعان، المطبعة العربية، بغداد، ١٩٥٢.
٨. السياب رائد الشعر الحر، عبد الجبار البصري.
٩. السياب، الظاهرة الحية، علي جواد الطاهر.
١٠. صفحات مطوية من أدب السياب، خالص عزمي، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٩٧١.

ثانياً: الدوريات

أ-المجلات:

- مجلة الآداب، عدد ٣، آذار ١٩٧١.

- مجلة الآداب، عدد ٤، ١٩٥٥.
- مجلة الآداب، عدد ٦، ١٩٥٦.
- مجلة الحياة، عدد ٨، ١٩٥٦.
- مجلة الكلمة، عدد ٢، ١٩٧٠.
- مجلة فنون، عدد ٢٢، ١٩٥٧.
- مجلة شعر، عدد ٣، ١٩٥٧.
- مجلة آفاق عربية، عدد ٦، ١٩٨٥.
- مجلة الطليعة العربية، عدد ١٢٣، ١٦ أيلول، ١٩٨٥.
- مجلة الف باء، ع٩٠٠، ٢٥ كانون الأول، ١٩٨٥.
- مجلة الرسالة، ع ٩٨، ١٩٦٥.

ب- الصحف:

- صحيفة الأخبار ٢٧ كانون الثاني، ١٩٥٦.
- صحيفة الجماهير في ١٩٦٣/١٠/٢٦.
- جريدة صوت الجماهير، العدد ٢٢، ١٩٦٣/١٠/٢٦.

ج- الرسائل:

- رسالة إلى جبرا إبراهيم جبرا في ١٩٦٢/٢/٢٥.
- رسالة إلى جبرا إبراهيم جبرا بتاريخ ١٩٦٣/١٠/١٥.
- رسالة إلى سهيل ادريس في ١٩٥٨/٥/٧.
- رسالة إلى يوسف الخال في ٤ مايس ١٩٥٨.